الأستاذة: د. أمينة أونيس
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي
السنة الدراسية: 2023/2022.
السداسي الأوّل

المادة: التجريب في الأدب الجزائري المعاصر
(محاضرة)
الاختصاص: الأدب العربي الحديث والمعاصر.
السنة: الثانية ماستر.
الأفواج: 01 + 02 + 03 + 04.

محاضرة رقم: 06

الأدب الجزائري ومسألة الهوية

1- نشأة الأدب المكتوب باللّغة الفرنسية:

يرجع المؤرخ والباحث "جان ديجو" أوّل نص أدبي كتبه جزائري باللّغة الفرنسية إلى سنة 1891، وهو عبارة عن قصة بعنوان "انتقام الشيخ، مستقاة حسب ما يذكر ديجو من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال* ، ونشرتها "المجلة الجزائرية التونسية، الأدبية والفنية.

إلاّ أنّ الباحث نفسه يذكر أنّ عملية المسح الشامل التي قام بها للجرائد والمجلات التي كان يصدرها الفرنسيون في الجزائر، في الفترة ما بين 1880 و 1920، بحثا عن نصوص أخرى لجزائريين آخرين، لم تسفر إلاّ على نتائج هزيلة، بحيث لم يعثر إلاّ على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات "رنين" عربي حسب تعبيره مثل "الجزائري" و "الراوي" و "الفرياني"، وهو يشك كثيرا في حقيقة أصحابها، بل و يرجح أنّها أسماء مستعارة لمستوطنين فرنسيين، ويستثني اثنين منهم، أحدهما يدعى أحمد بوري، الذي نشر سنة 1912 في جريدة "الحق" رواية مسلسلة بعنوان "مسلمون ومسيحيون"، ويعلق على الرواية بأنّها كتبت بـ "ماء الورد"، كناية على القفز المتعمد للمؤلف على تناقضات الواقع، حين يصور العلاقة بين الفرنسيين والجزائريين في غاية الانسجام والوئام. والثاني يدعى سالم القبي، الذي نشر سنة 1917 مجموعة شعرية بعنوان "حكايات وقصائد من الاسلام"، أتبعها بمجموعة أخرى سنة 1920 بعنوان "أنداء مشرقية" ولا يختلف عن الأول في تمجيده للإسلام والشرق وفرنسا في آن واحد.

ونظرا لهذا الفراغ المسجل بين سنة 1891 التي ظهرت فيها قصة "انتقام الشيخ" وبين سنوات العشرينيات من القرن العشرين، التي ظهرت فيها عدّة نصوص أدبية لأسباب سنأتي على ذكرها فيما بعد لجزائريين كتبوا باللّغة الفرنسية، ولا سيما في مجال الرواية، فإنّ "جان ديجو" المؤرخ الأول للادب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية، ولاسيما في مجال الرواية، فإنّ "جان ديجو" المؤرخ الأول للأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية يتخذ سنة 1920 كانطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ، ويعدُّ مؤلَّف القايد بن الشريف، الموسوم بـ "أحمد بن مصطفى القومي"، بداية تلك الانطلاقة، وينظر إليه على أنّه أول رواية يكتبها جزائري باللّغة الفرنسية[1].

---

* وهو أحد المثقفين الوهرانيين المعروفين، الذين اشتهروا بنضالهم الطويل من أجل الحفاظ على الهوية الجزائرية، وتعليم اللّغة العربية لأبناء الجزائريين.

1- ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي (نشأته وتطوره وقضاياه)، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013، ص:73 – 74.

2- أسباب تأخر ظهور الأدب المكتوب باللّغة الفرنسية:

إذا سلمنا بأنّ سنة 1920 هي الانطلاقة الحقيقية للأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية، فإنّ هناك ملاحظة لا يمكن لنا تجاوزها هنا، دون أن نبحث فيها، وهي طول المدة التي تفصل بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبداية ظهور هذا الأدب، فهي مدة تزيد عن التسعين عاما وهو أمر غير عادي وغير طبيعي، لاسيما إذا أخذنا بدعاوى الاستعمار الذي كان يردّد دائما أنّ رسالته في الجزائر هيرسالة حضارية. والحقيقة أنّ هناك عوامل وأسبابا عديدة أخرّت ظهور هذا الأدب كل هذه المدّة، أبرزها عاملان رئيسيان:

1- سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر، وحربه الاستئصالية ضد الأمة الجزائرية ومقوماتها الأساسية، الشيء الذي جعل العلاقة بين المحتلين وأهل البلد الشرعيين علاقة حرب ومناجرة وتوتر دائم، منعت أي احتكاك إيجابي بين الطرفين، ووقفت حائلا دون أي تعاون مثمر، سواء على الصعيد السياسي أو الفكري، أو الحضاري، وذلك لانعدام الثقة بينهما، والثقة شرط أساسي لقيام مثل ذلك التعاون المنشود في مجال السياسة، أو التلاقح الفكري، أو التأثير الثقافي والحضاري.

2- سياسة التجهيل التي طبقها المستعمر؛ حيث قضى على البنية التقليدية للمنظومة التعليمية التي كانت قائمة قبل الاحتلال قضاء يكاد يكون مبرما، ولم يعوضوها بمنظومة أخرى تضمن لكل أبناء الشعب الحد الأدنى من التعليم كما كان الحال في فرنسا[1].

3- نظرة على المؤلفات الأولى التي كُتبت باللّسان الفرنسي:

ظهرت أعمال أدبية باللّغة الفرنسية بعد أكثر من تسعين عاما من الاحتلال، كتبت على عجل للمناسبة، ونشرت على عجل أيضا، بالرغم ممّا كانت تنطوي عليه من نقائص وعيوب، فكان المؤلفون الجزائريون يريدون أن يبرهنوا للمستعمر أنهم تلاميذ نجباء ومقتدرون.

وعلى هذا النحو ظرت في عشرية 1920-1930 خمسة أعمال أدبية، وكنا أشرنا من قبل إلى مجموعة سالم القبي الشعرية، والسيرة الذاتية للقايد بن الشريف، ونضيف إليها:

- رواية "زهراء امرأة المنجمي" لـ "عبد القادر حاج حمو"، التي صدرت سنة 1925.
- رواية "مأمون بدايات مثل أعلى" لـ "شكري خوجة"، التي صدرت سنة 1928.
- رواية "العلج أسير بربروسيا" لـ "شكري خوجة" ، التي صدرت سنة 1929.

وواضح أنّ هذا العدد القليل من الأعمال الأدبية لا يشكل عامل فخر إذا قيس بطول فترة الاحتلال أو بحجم الدعاية التي أحاطت بها السلطات هذا الحدث. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ هذا العدد نفسه يعكس مدى عقم المدرسة الاستعمارية وضآلة النتائج التي اعطتها سياسة الاستعمار التعليمية بخصوص الأهالي.[2]

4- مواضيع الروايات في تلك الفترة:

- رواية "زهراء، امراة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو:

تعدّ هذه الرواية باكورة الأعمال الروائية للكتاب الجزائريين باللّغة الفرنسية، فقد كان بطلها، وهو عامل جزائري يعمل في مناجم الفحم بضواحي مدينة مليانة، يعيش مع زوجته عيشة راضية قانعة، رغم فارق الأجر الكبير بينه وبين ما

1- ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي، ص: 75.

2- ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي، ص: 78.

يتقاضاه أي عامل أوروبي يعمل معه في المنجم ذاته، وما إن خالط مجتمع المدينة، وعاقر الخمرة مع رفاقه من العمال الاوروبيين، حتى تدهورت حاله، وأهمل زوجته، وترك الصلاة، وانتهى به الأمر إلى السجن متهما بارتكاب جريمة قتل، لم يقترفها في الحقيقة.

- **رواية "مأمون" لشكري خوجا:**

تُعالج هذه الرواية موضوع الخمرة ونتائجها المدمرة على حياة بطله، الذي جاء من عمق الريف الجزائري إلى العاصمة لمتابعة الدراسة، وبعد مخالطة المجتمع الأوروبي، بحكم أنّه ابن "قايد"، انتهت حياته بالمرض والموت من جراء الشرب والسهر ولعب القمار.

والشيء المؤكد أنه حتى وإن جاءت ولادة الشكل الروائي لدى الجزائريين في سنوات العشرينيات كاختيار فردي في أحد جانبي الظاهرة، كما يرى مصطفى الأشرف، فإنّ موضوع معاقرة الخمرة، وتعاطي الحشيش، ولعب القمار، لم يأت عفويا، ولم يكن أبدا مجرد مسألة شخصية، أو "موضة" أدبية لدى كتّاب هذه الفترة، ولكنه كان هاجسا اجتماعيا، تحركه انشغالات وتساؤلات فكرية وسياسية، عن الحدود الفاصلة بين المحرَّم والمباح في الدين والقانون وفي القانون المدني، بين حرية الفرد بالمفهوم الغربي، والوازع الديني والأخلاقي بالمفهوم الإسلامي، ومن هنا نلاحظ أنّ أزمة الهوية قد رافقت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية منذ بدايته الأولى.

إلى أن أتى جيل الخمسينيات من امثال : محمد ديب، مولود معمري، كاتب ياسين، مالك حداد.. حيث ازدهرت الكتابات الروائية المكتوبة باللغة الفرنسية ، وكانت خير ممثّل للحالة التاريخية والسياسية والاجتماعية آنذاك.

يقول مالك حداد: "**إنّه بفضل اللّغة الفرنسية قد تجنبنا الوقوع في مخاطر الجهوية.. وإنّني جزائري، لا أحس بأية مأساة في استعمالها ومن يدّعون ذلك إنّما يخفون بذلك ضعفهم**".

يقول محمد ديب: "**إنّ رغبة التجذّر في عالم غير عالمك تتكسّر أمام عدم تمكنك أبدا من لقاء مجتمع، يجب الاعتراف بما هو بديهي: ستبقى دائما جزء من أولئك المهاجرين اليوهيميين الذين نصبوا خيامهم على مشارف مدينة، فإذا هم مهتمين بسرقة دجاج السكان الأصليين**".

يقول مولود معمري (يرد على عبارة مالك حداد): " **يجب أن لا نبكي و نشعر بالضياع لأنّنا نكتب بالّغة الفرنسية، فأنا شخصيا إذا كتبت بالّغة الفرنسية فإنّني لا أشعر بأية عقدة نقص، فالكاتب مهما كانت اللّغة التي يكتب بها إنّما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وافكاره هو، إنّني أقول إنّ هذه فرصة، بل غنّها ثروة للثقافة الجزائرية**".

وهذا بالتقريب هو رأي كاتب ساسين، الذي ينظر إلى اللّغة الفرنسية على أنّها وقبل كل شيء وسيلة تعبير وثانيا على أنّها أيضا لغة جزائرية.

هؤلاء خالفوا "مالك حداد" رأوا في كلامه مبالغة كبيرة، ونوعا من المازوشية أو تعذيب الذات.

تقول آسيا جبار: **لقد كان منفانا الأول لغوياً، وكان ذلك عهد منذ الصبا، وكانت تُعدّ الازدواجية اللّغوية (نوعا من العرج المزدوج)... ما فعلته هو أنّني مررت من الأدب المكتوب إلى الأدب الشفوي**".

بقي معظم الكتاب الجزائريين يكتبون باللغة الفرنسية، بسبب الولاء المزدوج لحضارتين وثقافتين، ولكن بعضهم قد اختار العيش في فرنسا كل الوقت أو بعضه، مثل محمد ديب وكاتب ياسين. بل أن الذين بقوا في وطنهم ظلوا متمزقين أيضاً، وأرادوا أن يمزقوا معهم شعبهم، ويحدثوا في وسطه البلبلة الثقافية وزعزعة الولاء الحضاري، أمثال مولود معمري،

فكأن بقاءهم فيها إنما هو لغرض القيام بمهمة خاصة، تخدم المصالح الاستعمارية التي عجزت عن تحقيقها مباشرة سواء أرادوا هم ذلك أم لم يريدوه.

ونلاحظ أن الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية، قد تمتعوا بحرية الحركة أكثر من الفرنسيين في اختيار الأجناس الأدبية والموضوعات والتقنيات، فهم خلافاً للفرنسيين أقل ارتباطاً بالتقاليد الأدبية. وكما يتوقع المرء، فإنهم قد أعطوا تركيزاً أكثر للرواية كما هي، باعتبارها الجنس الأدبي الطاغي في القرن العشرين.

وعلى العموم فإنهم قد منحوا الأدب الفرنسي المعاصر دماً جديداً وقوة جديدة بالطريقة نفسها التي أنعش فيها الأدب الأمريكي منذ وقت غير بعيد، الأدب الإنجليزي المعاصر. إن كتاب شمال أفريقيا قد أعطوا قوة للثقافة في وجوههم الجديدة. وهم أقل اهتماماً بالفحص الداخلي، كما يفعل المؤلفون في فرنسا نفسها، ولكنهم أقوى نبضاً نحو التسامي البطولي.

وهكذا استمر معين الروائيين باللغة الفرنسية، يغذي القراء حتى أيامنا هذه. وإن كانت ظاهرة التعريب قد دفعت بعض الروائيين إلى التوقف عن الكتابة باللغة الفرنسية، فبادر مالك حداد إلى التوقف عن الكتابة منذ فجر الاستقلال، تمشياً مع المبادئ التي كان ينادي بها أثناء الثورة، نتيجة إحساسه بالغربة الخانقة في اللغة الفرنسية, أما من استمروا في الكتابة باللغة الفرنسية مثل محمد ديب، فقد اختاروا الهجرة إلى فرنسا وفضلوا الغربة. وهناك من اختار طريقاً وسطاً مثل« كاتب ياسين» الذي اتجه نحو المسرح الناطق بالعامية الجزائرية المطعمة بالفرنسية. كما يلاحظ أن بعضاً من هؤلاء اتجهوا إلى ممارسة الكتابة باللغة العربية واستطاعوا أن يقدموا أعمالاً روائية يمكن أن نعتبرها مشروعاً لحركة الحداثة الروائية في الجزائر.